الرِّوايةُ العَرَبِيّةُ بينَ الحَقِيقَةِ التَّاريخِيّةِ وتَعدُّدِ الرُّؤى
رواية "فردقان" اعتقال الشّيخ الرَّئيس ليوسف زيدان أنموذجا

The Arabic Novel between Historical Truth and Multiplicity of Visions
The case of the novel « Fardeqan » the Detention of the Great Sheikh of Youssef Zeidan

طالبة الدكتوراه:/ حفيظة لورسي
الدكتور: بلال لعفيون

قسم اللغة والأدب العربي-جامعة محمد الصديق بن يحيى-جيجل (الجزائر)
مخبر اللغة و تحليل الخطاب، جامعة جيجل.
hafida.lourci@univ-jijel.dz

تاريخ الإيداع: 2022/04/25 تاريخ القبول: 2022/06/13 تاريخ النشر: 2022/09/15

ملخص:

تعالج هذه الدراسة طبيعة العلاقة التي تربط الرواية العربية بالتاريخ، وكيفية تعالقهما، خصوصا أن كلاهما يشتمل على الميزة السردية، كما يختلفان في الوقت نفسه، حول طبيعتهما؛ فالرواية هي خطاب إبداعي، تخييلي. أما التاريخ، فهو خطاب موضوعي، حقيقي. فرغم وجود هذا الاختلاف، إلا أنه لا يلغي وجود علاقة بينهما.

كما تكشف هذه الدراسة عن المعطيات التاريخية التي يتمّ توظيفها في بناء الرواية. وأيضا معرفة مقاصد الروائي ورؤاه المتعدّدة التي رام إلى تحقيقها من وراء توظيفه للحقيقة التاريخية.

الكلمات المفتاحية: الرواية العربية؛ الحقيقة التاريخية؛ تعدّد الرؤى؛ فردقان؛ يوسف زيدان.

Abstract:

This study deals with the nature of the relationship between the Arabic novel and History, and examines the way they are related, especially since both of them include the narrative feature, and differ at the same time in terms of their nature. As for the novel, it is an imaginative creative discourse. As for history, it is a real objective discourse. Despite this

difference, it does not eliminate the existence of a relationship between them.

This study also reveals the historical data that are employed in building the novel. It identifies the novelist's purposes and various visions that he aims to achieve through his employment of historical truth.

key words: Arabic Novel; Historical Fact; Multiplicity of Visions; Fardeqan; Youssef Zeidan.

مقدمة:

رافقت الرّواية العربية منذ نشأتها، واقع الإنسان العربي ووجوده، فأنتجت نُصوصًا حبلى بالتَّساؤلات والإشكاليات، باحِثة فيها عن الإجابات التي تَتوارى خلفَ هذا الوجود، الذي يستدعي الوقوف عليه، بغية فهمه وترميم تصدُّعاته. كما ركّزت اهتمامها أيضًا على التَّفاصيل التي تخلّف تردّدات مثيرة في حياة الإنسان والتَّمعن فيها، لما لها من تأثير بالغ على الوجود الإنساني. فالرّواية بدورها الفَاعِل تَمنح الإنسان أكثرَ من حياة واحدة، وتفتّش عن البَديل الذي يَشفَعُ له بالاستمراريّة والتَّواجد. فالرواية عبر اشتغالها على هذا النَّحو الذي يصوّغ قراءة هذا الوجود، فإنَّها قد استعانت في تدعيم مطامحها بروافد خارجة عن نطاقها الفني الذي تمتاز به، بتضمينها لخطابات غير أدبية، لتصبح بعد ذلك، إحدى مكوناتها الأساسية التي لا يمكن لها أن تَحيد عنها.

يُعدّ التَّاريخ من أهم الرّوافد والخطابات التي أغنت المشهد الروائي العربي، الذي أضحى من الأساسيات التي تسمح باكتمال فنّ الرواية وتميّزها، فهو الغنيمة التي يتسلَّح بها الروائي لدعم مواقفه وأفكاره، وصناعته للوعي لدى المتلقي، خصوصا بعد قناعته الفنية بضرورة اكتساب أساليب جديدة تضاف إلى هذا العمل الإبداعي، الذي يمتاز بالمرونة والحوارية مع مختلف الأجناس والخطابات. وقد أكسب المعطى التاريخي بعدا دلاليا استثنائيا زاد في عمق الطّرح الروائي.

حضور التاريخ بأحداثه وشخصياته في الرواية، هو إثراء لفنّياتها وشكلياتها ومضامينها، أن التاريخ -قبل كل شيء- هو منظومة حياتية تعكس وضع الإنسان الماضي، ونمط عيشه، وطريقة تفكيره، وكون التاريخ يشتمل على هذه المفاهيم، فهو يحتم على الرواية أن تقحم هذه المكونات التاريخية ضمن مخطّطها السردي، فتكون مضطرة في أحايين كثيرة إلى احترام واقعية التاريخ وحقيقته، كما يمكن في المقابل، أن تكون هذه الحقيقة التي يتميز بها التاريخ، هي مبعث لحركية جديدة تتشكّل على المستوى الدلالي، فتكون قاعدة لانبثاق فكر متعدّد ومتحرّر، يكون

الروائي هو المستثمر الفعلي لهذا التعدّد، عبر اشتغاله الضمني على هذا التاريخ، ليمرّر خطابات مضمرة تحت عباءته، فيستلزم عنها تبلور لرؤى متنوعة الطرح والأفكار.

والتشكيل الروائي الذي يجمع بين التاريخ بطابعه الحقيقي والواقعي، وبين تعدّدية الرؤى التي يقترحها الروائي انطلاقا من اشتغاله على هذا التاريخ، يقود إلى طرح تساؤلين، يتأسس عليهما هيكل هذه الدراسة. ويتَمثّلان في:

- كيف تتجلى علاقة الرواية بالتاريخ؟
- ما المقاصد والفنيات الأدبية من هذا التعالق؟

أولا- علاقة الرواية بالتاريخ: حدود التاريخ وامتدادات الروائي

ينطوي العمل الروائي العربي على تقنيات سردية، اقتنصت تقاليدها في كثير من الأحيان من التراث التاريخي المحفوظ في المخيال الجمعي المشترك، واستجلاب مضامينه وقائعه وشخصياته، التي ترى فيها المجال الذي يمكن أن يدعّم بناها على كافة مستوياتها؛ الشكلية، والجمالية، والمضمونية، لتشكّل قيمة مضافة وعاملا رئيسا في تعزيز مراميها. لذلك كان الروائي العربي ومازال يستحضر التاريخ مكونا أساسيا لها، وهذا يعود ليقين الروائي بفاعلية التاريخ وخطاباته في تشكيل رؤيته ومعالجته للقضايا الراهنة من جهة، وإسهامه في التأصيل للرواية العربية وتكوين هويّتها السردية من جهة أخرى، بعد أن كانت رهينة للممارسات الروائية الغربية.

فالروائي العربي وعبر اغترافه من معين التاريخ، هذا يعني بالضرورة، اشتغاله المتواصل والدؤوب على النصوص والسجلات التاريخية، ووعيه الكبير بالطريقة التي يجب التعامل بها مع التاريخ، خصوصا عندما يلج مجال الراوية، بوصفها عملا تخييليا بالدرجة الأولى، وهذا ما يجعل النص التاريخي محلّ تحوير وتعديل فنّي بفعل وجود متخيّل، يصوغ نصا جديدا مؤسسا على ما يقترحه الروائي من المفاهيم التي تشكّلت نظير استقرائه لذلك التاريخ، مادام يمثل واقعا تم حدوثه في الماضي، وتحليله للأنساق التي تحكم الثقافة المجتمعية، والأفكار المترسبة فيها منذ أزمنة بعيدة. لذلك، أضحت القراءة التي يمارسها الروائي على التاريخ، بعثا جديدا لحقيقة ثاوية خلف هذه النصوص، فهي تمثل خطابا تاريخيا، الذي هو في الأساس "خطاب سردي بالدرجة الأولى، ومهما بالغنا في إسباغ البعد المرجعي عليه، فإنه يظل خطابا منجزا في مقام محدّد تتحكم فيه اعتبارات شتى توجهه وتضيء مسالك قراءته،"[1] فما يقدّمه الروائي هو تحليل لبنى هذا التاريخ، بكل ما يحمله من أطرٍ معرفية، وأحداث، وشخصيات، قد

أحدثت أثرا هاما في زمنها، ومازال تأثيرها متواصلا على باقي الأزمنة الموالية لها .لذا، فكثيرا ما نجد الروائي "يلبس قناع المؤرخ مؤقتا، أو بشكل أدق، قناع القارئ المحترف للتاريخ، الذي يحفر بعمق في الأشياء بحثا عن إجابات لفرضيات تشغله، ويحاول أن تجد مكانا في الأشياء المنسية في التاريخ،"[2] فتكون هذه القراءة التي يشكّلها، قائمة على نسق رؤيوي، يعكس طريق تفكير الروائي، والكيفية التي ينظر بها في حكمه على هذا التاريخ المتجدّد عبر أزمنته المتعدّدة، الذي يثري النص الروائي بإشكالات معاصرة، أربكت الوجود الإنساني، ودفعته إلى التفكير في مستقبله ومصيره المجهول. فقراءة التاريخ هي أداة يتوصل بها الروائي للإفصاح عن رؤاه وأفكاره، باعتبارها "سيرورة يتم من خلالها إنتاج وإعادة إنتاج مختلف أنواع المعاني، بترسيخ موقف ذهني من العالم."[3] فتبدو الرواية - بهذا المعنى- استنطاقا للتاريخ الذي يشتغل فيها الروائي كفاعل أساسي في تحويره، وفقا لما يمليه تصوّره الخاص في قراءته لهذا الواقع وتتبع إشكالاته، مستعينا بعناصر التاريخ ومكوناته كإحدى الآليات والمنطلقات التي يمكن لها أن تثري النص بدلالات مختلفة، وتلوّينه بمضامين ورؤى متعددة.

ثانيا- رواية "فردقان" اعتقال الشيخ الرئيس، بين الحقيقة التاريخية وتعدّد رؤى.

عمد الروائي "يوسف زيدان" في تأثيث نصه الروائي هذا على ما تجود به الذاكرة في ارتدادها إلى الماضي، والتقاط ما حرّك هذا الماضي، وما كان له صدى في خلقه، إذ استثمر عبر معطياته التاريخية المتاحة (الأحداث، الشخصيات، الزمن) بناء سرديا منفتحا على احتمالات وتأويلات متعدّدة. فهذا التواشج بين النص التاريخي والنص الروائي، يدفع بالأساس إلى إثارة الحيرة و التساؤل حول طبيعة هذا التشكيل السردي المتفرّد، الذي يتأسس على نمطين مختلفين، الأول يتَّصف بالحقيقة والثبات، وآخر يتَّسم بالخيال المطلق، ليكوّنا معًا أبعادا دلالية، يتمّ عبرها استقراء المسائل الشائكة التي يتوّجب طرحها ومعالجتها.

2-1:الشخصية التاريخية: تمثيل أزمة المثقف والبحث عن أنسنته.

بنيت هذه الرواية على العديد من الشخصيات التي مثّلت إحدى أهم عناصرها السردية، كما ركّزت بالخصوص، على الشخصيات التاريخية التي أقرّتها كتب التاريخ، وأثبت وجودها ماضي الحضارة الإسلامية، ما يثبت اهتمام مخيال الروائي بالتراث التاريخي، واحتفاءه بما هو واقعي من جهة، واستنطاق أبعاد هذه الشخصيات من جهة أخرى.

أ-الشخصية التاريخية وتمثيل أزمة المثقف مع السلطة:

إن الروائي "يوسف زيدان" عبر ارتداده إلى التاريخ، قد استرفد منه شخصيات مرجعية، "التي تحيل على دلالات وأدوار وأفكار محدّدة سلفا في الثقافة والمجتمع، بحيث يكون إدراك القارئ لمضامينها ودلالاتها الرمزية مرتبطا بدرجة استيعابه لهذه الثقافة،"[4] لذلك، فهي منتقاة بوعي معرفي وفني، بغية بناء نص متكيّف مع مقاصد الروائي ورؤاه. فكان له أن استقر في خياره الإبداعي، على شخصية "أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا" المحفورة اسمها في تاريخ الحضارة الإسلامية، بفعل ما قدمته هذه الشخصية من نتاجات علمية وفلسفية ودينية، أغنت المعرفة الإنسانية، فأضحت بعد ذلك، مصدرا ثريًّا لمنجزات البشرية على مرّ العصور.

فهذا الزخم المعرفي الذي اكتنف هذه الشخصية، وكما أوضحته المصادر التاريخية، كان له حضور وتمثيل في هذا المنجز الروائي، من خلال عرض جزء من سيرة "ابن سينا"، وتتبع تأليفاته وجهوده العلمية، بدءا من مرحلة اعتقاله في قلعة "فردقان" كمرحلة متقدّمة من حياته، ورجوعا بالسرد إلى ماضيه الحافل بالإنجازات العلمية المتنوعة، حيث كان كثير الاطلاع على الكتب مع غزارة التأليف خصوصا في فترة اعتقاله، إذ اغتنم فرصة بقائه في السجن لإعمال العقل والتفكير للوصول إلى مختلف صنوف المعرفة، فكان الروائي ينقل اهتماماته المعرفية، بقول السارد: "وفي غمرة هذه الشواغل، كان يختلس الأوقات فيكتب أجزاء من كتابه الكبير، الذي سيفرغ منه بعد سنوات ويسميه: قانون الطب،"[5]

كما نقل الروائي عبر مقاطع سردية ، نهم "ابن سينا" وشغفه بالمعرفة بطريقة تفصيلية وأركيولوجية دقيقة، تنمّ عن اطلاع الروائي بخصوصيات هذه الشخصية ومؤلفاتها. وهذا يّعدُّ نوعًا من التنويم الذي يمارسه الروائي على القارئ، قصد إدراجه ضمن عوالم هذه الشخصية، فيجعله منفصلا عن عَالَمَه، وملتحما بعالم "ابن سينا" الذي يمثل الفضاء الأمثل لاكتساب مختلف المعارف، وبعث روح التفكير، وتمطيط الرغبة في اكتشاف الحقائق، وإعمال الفكر والعقل في المسائل التي تعود بالنفع عليه وعلى غيره. فيكون "ابن سينا" النموذج الأسمى لتطوير الذات وتكوينها، في ظل عزوف هذا الجيل عن تلقي العلوم والمعارف، التي من شأنها أن تعلي من قيمته ووجوده.

ومن جهة أخرى، فسَعي "يوسف زيدان" بإسهابِه السردي والمعرفي، هو تَلوِينُ هذا المتخيّل الروائي بصبغة توثيقية، تضعه في بعض الأحيان على أساسٍ واقعي وحقيقي، فيتبدى لدى القارئ، أن الروائي قد استحال عبر سرده الروائي إلى مؤرخ يتحرى المعلومات بين الوثائق، ويحرصُ على دقتها وصحتها.

وبالنظر إلى موقع شخصية "ابن سينا" في هذا العمل الروائي، يمكن الحكم على وجودها المركزي، وتمحورها لبنى النص، وتفرّدها بالرّيادة، وتأثير مدلولها وفاعليتها على باقي العناصر السردية المكونة له، والتي تخضع لأحوالها وتحرّكاتها ضمن فضاء النص، وتحكّمها في سيرورته وصيرورته. وهذه المفاضلة التي احتكم إليها الروائي في توطّين هذه الشخصية التاريخية، تحيل إلى وجود غاية مبتغاة يروم تحقيقها، تَمثّلا لطبيعة الرواية التي تشتغل على المعطى التاريخي، لتفعيل دورها كقارئ لهذا الواقع بكل تمفصلاته ومتغيراته، وكمنقذ يستنجد به لفك تعقيداته، والاقتراب إلى عوالم الإنسان وصراعه في هذا الوجود، الذي أضحى يضيق عليه كلما بحث عن سبل الخلاص منه وتجاوزه. وعلى هذا الأساس، كان اختيار الروائي متَّجها نحو شخصية تاريخية لها تقاليدها المعروفة في المعرفة الإنسانية، هادفا من ورائها، إلى إعلاء الذات العالمة المثقفة التي تستثمر قدراتها العقلية والفكرية القارة في أناها، وتتجّه بها لخدمة الغير الذي يستمر في الاشتغال عليها لعصور أبدية.

فالاهتمام بالجانب العلمي والفكري لشخصية "ابن سينا"، راجع لرغبة الروائي في بعث وإحياء الشخصية المثقفة، التي أضحت مهمشة ومنسية في الزمن الحاضر الذي يفتقر للأبطال الحقيقيين الذين يصنعون مجد هذه الأمة. وأيضا لتوضيح الموقف الفكري الذي يكتنف الذات المثقفة، التي يحق لها أن توصل صوتها المُغيّب، وأن تفرض نفسها في الفضاء المجتمعي، وتوضيح موقفها تجاه القضايا التي تربك الوضع السياسي، وهذا ما تسبّب في اعتقال "ابن سينا" في قلعة "فردقان".

وكون الإمكانات السردية وسيلة الروائي للتعبير عن شواغله، فقد عمد "يوسف زيدان" إلى إبراز ذلك، عن طريق إقحام تقنية الحوار بين الشخصيات، كطريقة لتبيان ذلك الموقف، واستحضاره لشخصيات مُتخيَّلة مضافة إلى الشخصيات التاريخية والحقيقية، ودمجهما في نسق سردي واحد وبكيفية متناسقة ومتجانسة. فورود الشخصية المتخيّلة "صفوان البرجندي" المعروف بين عسكر القلعة بلقب "الزعاق"، وبعد أن اختاره الروائي رئيسا لحراس هذه القلعة، وملازمته في الكثير من الأحيان لابن سينا ،هي حيلة سردية انتهجها الروائي لتوضيح موقفه من العسكر والجند، لما كان وزيرا لسماء الدولة، وكان هذا الموقف سببًا مباشرًا في اعتقاله، وهذا ما ورد على لسان السارد بقوله: "على غير عادته، قاطع ابن سينا محدثه سائلا إيَّاه بانزعاج: وما شأني أنا بالقتال الوشيك، وبالجند والعسكر؟ فأجابه الزعاق من دون زعيق: يا سيدي، الأمير " سماء الدولة" يعلم أن العسكر لا يحبونك منذ كنت وزيرًا لأبيه، وهم مغتاظون من كتابك الذي ألفته وقتها وجعلته بعنوان "تدبير الجند والمماليك والعسكر"؛ لأنَّك

نصحت فيه الحاكم بإبعاد العسكر على المدن، وعدم الإفراط في عطاياهم. فكانت النَّتيجة أن تجهّم في وجوههم، وقلَّل من قدرهم، وقلَّص أرزاقهم. وأنت تذكر ما فعلوه بك أيامها، ولا يريد الأمير أن يتكرر مثل هذا الفعل الذي لا تؤمن عواقبه، خصوصا وأنه على أبواب حرب مع "علاء الدولة" الذي يحبك ويقدرك. وهو أيضا يحبك ويقدرك. فوجد من الأصوب إبعادك عن همدان في هذا الوقت، حتى لا تتفاقم الأمور."[6]

فالارتكاز على هذه الفترة من حياة "ابن سينا"، وإبراز موقفه تجاه القضايا السياسية، هو رغبة الروائي في توضيح مهمة المثقف، وتوعيته بضرورة تفعيل دورهِ الحقيقي والإخلاص في مهامِهِ الموكّلة له، التي تلزمه بالوقوف عند الإشكاليات التي تربك الواقع، وتزعزع استقراره وسكونه، باعتبار وظيفة المثقف في المجتمعات الإنسانية ليست متاحة للجميع، إنَّمَا مخصوصة به، ولازم عليه أن "يحمل صفات ثقافية وعقلانية مميزة، تؤهله للنفاذ إلى المجتمع والتأثير فيه."[7] وهذا ما جَسَّدَهُ "ابن سينا" بدهائه وحِنكته في تقديره للمهالك التي تَتربَّصُ بالأمّة، الذي استشعر خطر اعتلاء العسكر والجند السلطة، والتأثير على استقرارها، ليجسد بهذا صفات المثقف العضوي بمفهوم "أنطونيو غرامشي".[8]

فالروائي "يوسف زيدان" وعبر إدراجه لموقف "ابن سينا" المعارض للسلطة، هي محاولة منه لتبيان الوضع العام للنظام السياسي، الذي تسير عليه معظم الدول العربية، التي يتسيّد فيه النظام العسكري على حساب إرادة الشعب وطموحه، وسيطرته على مجالات الحياة، ونتيجة لذلك تنحسر الحياة المدنية التي تتيح حرية التعبير، وإبداء الرأي من دون قيّد أو حدود تحت تسمية "الديمقراطية"، و تَتّسِعُ في المقابل، لغة السلاح والعُنف كإحدى الآليات التي تَسِير عليها الأنظمة العسكرية والدكتاتورية، التي أدخلت المجتمعات العربية في دوَّامَةٍ من الصراع بين الحاكم والمحكوم.

كما يعكس اضطهاد العسكر والجند "لابن سينا"، خِطَابًا هَمَجِيًّا يهدّد الذات المثقفة، ويحدّ من أفكارها التّنويرية الهادفة "إلى فضح الفساد، والدفاع عن الضعفاء، وتحدي السلطة المّغيبة أو الغاشمة."[9]وقد يصل في الكثير من الأحيان إلى التَّصفيَّة الجسديَّة أو النَّفي، " قبل اعتقال الشيخ الرئيس بسنوات، حنق عليه كبار العسكر والمماليك وهيَّجوا جمهور الجند ضده، فلم يكترث. زادهم ذلك غيظًا منه، فأكثروا من الشائعات للتَّشنيع عليه والنَّيل من مكانته كوزير للأمير شمس الدولة أبي طاهر البويهي، أبي الأمير الحالي "سماء الدولة" واحتالوا للإيقاع به عند الأمير. فلم يكترث.. واستمر الأمرُ والحالُ المرير، وتفاقم، حتى بلغ الثورانُ في نفوس الجند غايته وبلغ آخر مداه، فاجتمعوا ثائرين وجلبوا معهم طغمةً من أرذال العوام،

واقتحموا منزل ابن سينا بهمدان ونهبوا ما فيه، واقتادوه إلى السجن. وصخبوا عند الأمير "شمس الدولة" كي يصرح لهم بقتله، وكان الأمير يخشى بأسهم إذا انفلت أمرهم، ولكنه من ناحية أخرى يقدر مكانة ابن سينا وفضله. ففاوضهم في الأمر حتى وصلوا إلى الحلِّ الأوسط، وهو نفي ابن سينا من البلاد وإبعاده عن "همذان" وما حولها."[10]

وقد عَمَدَ الرِّوائي إلى تأكيد قضية أزمة المثقف في الفكر العربي، وشموليتها على العديد من المثقفين والعلماء عن طريق إدراجه لشخصيات أخرى من التُّراث التاريخي، من أمثال: "الرازي" و"البيروني وغيرهما. حيثُ نقل الحال الذي آل إليه "البيروني" في ظل ظلم الحكام على لسان "ابن سينا" بقوله: "رحمه الله، فقد عانى في دنياه الدواهي، وأظنه كان ينوي العكوف على هذه المسودات وإخراجها منسقة في كتاب كبير. لكن اضطهاد حاكم "الري" له أيامها بسبب آرائه الفلسفية، حال بينه وبين الإتمام. لا أمان للعلماء والفلاسفة في كنف الأمراء والحكام، ولكن لا غنى لأولئك عن هؤلاء.. فما الحل؟ ترى ما حال أبي الريحان البيروني اليوم، وهو في صحبة السفاح ابن سبك تكين؟"[11]

فهذه الشخصيات تفصح عن مأساة المثقفين ومعاناتهم مع الطبقة السياسية وحملة السلاح، التَّواقين إلى القتل ومعاداة المفكرين والعلماء. من أمثال هؤلاء، نجد الشخصية التَّاريخية "محمود الغزنوي" التي وظفها الروائي، قصد تقديم صورة حقيقية عن الحكام المستبدين والنَّاقمين على كل مظاهر التَّفكير العِلميّ والمعرفي، الذين جرّوا الأمة إلى مهالك كبيرة من أجل فرض سلطانهم. وهذا قد تجلى في قول السارد: "استولى محمود الغزنوي على بوخاري، عربد عسكره ونهبوا المدينة وخرّبوا المكتبات."[12]

هذا ما يمثل العلاقة الجدلية القائمة بين المثقف والسلطة، فالمثقف هو الطرف المعادي للسلطة والطبقة الحاكمة، والناطق باسم الأمة، و"الشاهد على المجتمعات الممزقة التي تنتجه، لأنه يستبطن تمزقها بالذات،"[13]ويعي جيّدا كيفية النفاذ إلى أعقد المشكلات، إذ يستعين "بعلمه وشفافيته وعقلانيته، للدفاع عن الأمَّةِ والوطن، خاصة في أوقات المحن والضياع والانكسار المعنوي والحضاري،"[14]والمحافظة على استمرارية وتوازن الأمة، والواعي الأكبر لطبيعة الأنظمة السياسية، حيث يسعى إلى تفكيك خطابها المتعالي الذي كثيرا ما يعرف فسادا في نظام حكمها، وتغليبها للمصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة، لذلك نجد الطبقة السلطوية من أكبر الحاقدين على الطبقة المثقفة التي تعدّها الطرف النّقيض الذي يهدّدها ويهدّد مطامعها في البقاء على السلطة، فلا تجد في الاضطهاد والنفي والاعتقال والقتل إلا سبيلا لتقويض المشروع التنويري الذي يخطّه المثقف العربي. ومن ثَمَّ، فإنّ الصِّرَاع بين

المثقفِ والسُّلطة في هذا النّص الروائي، هو صدام بين العقلية الفكرية والسلطوية. وجنوح الروائي إلى إظهار هذه العلاقة، هو تمثيل لحقيقة الوضع العربي الذي عانى في ماضيه، ومازال يعاني في الحاضر من صراع الإيديولوجيات المتنافرة، التي تعدّ سببا في تأخره عن مسايرة التطوّر الحاصل على المستوى العالمي، فعندما تطغى المظاهر السّلطوية على حساب التّفكير العقلي والعِلمي، فستؤدي بالمجتمعات إلى سلك منعرجات خطيرة يصعب تخطّيها، فتدخل تبعًا لذلك، في دوّامَة من الصراعات التي تفضي إلى الانحطاطِ والتَّراجع الحضاري. وهذا الأمر، هو الذي جعل الأمة العربية تضيع في غياهب من الأزمات المتواصلة، فكان الفاعل في صنع الفارق بينها وبين الأمم الأخرى؛ ففي الوقت الذي تحتفي فيه الأمم الغربية بعلمائها ومفكريها، بغية حفاظها على مكانتها العلمية وصناعة مستقبلها، ظلت الأمة العربية حبيسة أفكارها الطامحة إلى التسيّد والتسلّط، وقمع المثقفين والمفكرين والعلماء، حفاظا على مكاسبهم. وهذا ما هو متأصل في العقلية العربية بحبها للسلطة واعتلاء الحكم، بدلا من التفكير و إعمال العقل الذي يقود إلى إنجازات علمية، تسهم بشكل كبير في تطويرها. فالرجوع إلى مأساة الشخصيات التاريخية المثقفة والعالمة في هذه الرواية، هو استذكار لما وقع في الماضي، وإثبات لحقيقة النظام السياسي، الذي كان سائدا في تلك الفترة، وإسقاط لما هو وارد في الحاضر أي؛ توحيد "الحاضر والماضي بتاريخ لا يعرف الانفصال."[15]

فالروائي "يوسف زيدان" بهذا الطرح، قد أعاد النَّظر في قضيةِ المهمّشِين والمقموعين والطبقة المسحوقة في المجتمعات،" وهي أصوات ظلت مكتومة بصورة كلية من طرف أصحاب السلطة الذين يتكلمون عن الهامشيين، ولكنهم لا يسمحون لهم بالكلام،"[16]نتيجة ممارسات الأنظمة السياسية المتسلّطة، وباعتبارها تمثيلا لواقع قد عاشه، وأحسَّ بمرارة المعاناة التي يعيشها المثقف داخل أمته، كونه المثقف والمفكر الذي اقترب إلى معايشة الوضع السائد في مصر والانقلابات والأزمات التي مرّت بها، ومناهضته للسلطة وفضحه لتجاوزاتها، مختبئا تحت عباءة شخصية "ابن سينا". فأضحى موقفه من هذه الأزمات، دافعا للكتابة حول أزمة المثقف، لتكون شخصية "ابن سينا" والبيروني والرازي وغيرهم، ذات بعد رمزي تمثل ذات الروائي وباقي المثقفين في كل زمان ومكان.

ب-الشخصية التاريخية وأنسنة المثقف:

إذا كانت الشخصية التاريخية في هذه الرواية تخضع في غالب الأحيان إلى الحقيقة التاريخية، فهذا لا يضمن لها أن تستقر على طبيعتها، كونها تخضع لاعتبارات تفرضها طبيعة الرواية، وتهيكل تبعًا للمخيّلة الروائية وما يمليه توجّهها الفكري.

بالرجوع إلى الشخصيات التاريخية التي استحوذت على هذا المنجز الروائي، فإنَّه لا مَناص من استذكار شخصية "ابن سينا" وجلبها مرة أخرى في هذا المساق، بوصفها الشخصية المركزيّة في النص، الأمر الذي يجعلها أكثر عرضة للمتغيرات السَّرديّة التي تعطي الشّخصية أكثرَ من دَلالة واحدة، وأكثر من استعمال واحد. فأوَّل ما ركّز عليه الروائي "يوسف زيدان" هو العودة بتلافِيفِ السَّرد إلى حادثة اعتقال "ابن سينا" ومعاناته مع السلطة، لتصبح معادِلًا موضوعيًّا لأزمة المثقف المتواترة عبر أزمنة الماضي والحاضر والمستقبل، مثلما تمّ الإشارة إليه فيما سبق، ثم يتّجه بسرده نحو وجهة أخرى، تكون شخصية "ابن سينا" الذات الفَاعِلة فيه، ولكنها تنأى بقليل عن سلطة الحقيقة التاريخية، وتقترب بكثير من الخيال الذي يجِدُ فيه الروائي ضالته.

فالاستعانة بالخيال، يمنح الروائي قدرًا كبيرًا من الحريّةِ في تمثيل شخصيات منفلتة من قيود المرجعيات والضوابط التاريخية والثقافية، وهذا ما جعل شخصية "ابن سينا" تبدو بصورة أخرى مخالفة لما هو وارد في الكتب والوثائق التاريخية، وبعيدًا عمَّ استقر في الذهنية العربية حول هذه الشخصية، ليتشكّل وجه آخر من صنع الذات الروائية التي استثمرت ما غفل عنه التاريخ، وقدمت خطابًا رِوائِيًّا أقرب إلى الطبيعة البشرية، وذلك بالاقتراب أكثر من الجوانب الخفية في الشخصيّة والغوص في جوهرها. ويتّضح هذا من خلال جعل "ابن سينا" محبًّا للنساء ومعاشرًا لهن. وقد جُسِّدت هذه الصورة، عن طريق إدراج الرّوائي لثلاث شخصيات نِسائية متخيَلة، مررن بحياته، وهن "سندس"، "روان" و "مهتاب"، حيث نوّع الروائي في إدراج قصصهن، تبعًا لسيرورة السرد وتموجاته، فقد عاد بالسرد وعبر تقنية الاسترجاع إلى الحياة الماضية لابن سينا، حينما كان فتى في سن الثامنة عشر. وكان حلم "سندس" هو الوصول إليه، وهذا ما حدث بالفعل بعد ادعائها المرض ودعوة الشيخ الرئيس لعلاجها، وإغوائه ثم الوقوع في شراكها، "دخلت به الغرفة وكانت معتمة، إلا في بعض ضياء القمر الآتية بخجل عبر النافذة المفتوحة، لتفترش شريطا فضيا ينام تحت النافذة، ضوء القمر فضي مثل ثوبها الحريري، ومثل جسدها الناعم اللامعة ثناياه العطرة.. عند السرير أمسكت ثيابه بأطراف أصابعها، وجذبتها لأعلى حتى جعلتها عنه. مسَّته، فذاب، فافترشته وهي تهمس في أذنه: هذا ما كنت أحلم به طيلة عمري، أنت حلمي الوحيد."[17]

وعلاقة "ابن سينا" مع شخصية "روان"، كانت نتيجة لعلاجه لابن الأمير البويهي، الذي أصيب بمرض المالنخوليا وبعد نجاحه في علاجه كافأه البويهي بـ"روان" التي افتتن بجمالها

وسحرها، "ما عاد ابن سينا وهو مفتون، يدري إن كان ينهل من نهرها أم أنّه ذاب في مياهه، فكلّما ارتوى من رحيق حضورها الآسر في حضنه، وجد نفسه عطشانا ومشتاق إلى النبع."[18]

أما "مهتاب" فمعرفته بها كانت آناء اعتقاله في القلعة، ومجيئها رفقة أخيها "ماهيار" قصد ملازمته والانتفاع من علمه، فقد كانت "مهتاب" ذات جمال فاتن، بالإضافة إلى ذكائها وتفوّقها في طلبِ العِلم ما جعل "ابن سينا" يهيم بها، "لحضورها وهج يسلب الألباب، ويحير الحكماء. كان ابن سينا قد سمع سابقا بأن "مهتاب" حسناء، ولكن البون شاسع بين السمع والمعاينة. فعندما رآها تدخل عليه وعطرها الآسر يسبقها، أدرك أن قولهم أنّها جميلة هو نعت عام، ووصف قاصر لا يرقى للتعبير عما يراه أمامه. وداهمه خاطر مدهش مفاده أن هذه الرشيقة، ساحرة العينين، ليست من دنيانا."[19]

إدراجُ الشخصيات النِّسائية إلى جانب شخصية "ابن سينا"، أضافَ للنَّصِ الرِّوائي صيغة جديدة، أخرجته من النَّسَقِ التَّاريخي الذي اكتنفه على امتداد مقاطع سردية طويلة، وأحدثت المفاجأة على مستوى السَّرد، مِمَّا أدى إلى خرق أفق توقع القارئ، بَعد أن تشكّل لديه تصوّرٌ جديد عن هذه الشخصية، مُغايرٌ للتصوّر الذي كان في ذهنه من قبل. كما لم يكتف "يوسف زيدان" من سرد علاقة "ابن سينا" بالنساء وحبه لهن، إنَّمَا عمل على تمثيله بكونه سكيرا يشرب الخمر، وهذا يتجلى بقول السارد: «بقى جالسا بمكانه، واجما. ثم قام إلى قنينة النبيذ وصبَّ منها كأسا عاد بها إلى طرف الدَّكة، وراح يحتسيها على مهل. ويفكر"[20]

والتمثيل السردي لشخصية "ابن سينا" بهذا النحو، يقود إلى طرحِ تساؤل حول غاية "يوسف زيدان" من تصوير هذه الشخصية بمثل هذه الجرأة، التي كثيرا ما يتجنّبها الروائيون، خصوصا أنها تَمسّ إحدى الشخصيات التي تمثل مجد الحضارة الإسلامية، هل كان في نيته تشويه صورة "ابن سينا"؟ وإن كان ذلك، فلماذا نجده في المقابل، قد صوّره على أنه شخصية ورعة وملتزمة، بقول السارد: "فلم يصحُ ويفارق مرقده إلا عندما تسلل إلى سمعه صوتُ المؤذن الأجش، الداعي لصلاة الفجر.. توضأ بقدرٍ من الماء يسيرٍ وأسرع في الصلاة"؟[21]

يبدو أن نظرة الروائي لابن سينا، تتجاوز حدود التشويه والاحتفاء إلى جانب آخر أكثر دقة وعمقا، وهو الغوص في دواخل الشخصية التاريخية واستبطان كنهها، وملامسته" العمق الذي إليه يقود السبر الدقيق لحياة الأنا الباطنية، في البحث، بوعي أو بلا وعي، عن توجه جديد،"[22]وإسقاط تلك الصورة النَّمطية التي اجتهدت الكتابة التاريخية في الحفاظ عليها، ونقلها بناء على ثوابت نخبوية متعالية، استعصى عليها النَّظر إلى هوامش أخرى من هذه

الشخصية ونوازعها، والتَّعامل معها على أنَّها شخصية مثالية منزوعة العواطف والأحاسيس، وكأنّها خُلقت لتُفكر وتُؤلف وتتفاعل مع الحوادث والصراعات وكفى. وهذا ما عمل عليه "يوسف زيدان" الذي وجّه نظرة عكسية مخالفة لنظرة الكتابة التاريخية، وذلك باشتغاله على مُيُولات النَّفسِ البَشرية، التي يستحيل لها أن تستقرّ على طابع مثالي ملتزم، وإنَّما لها جانب آخر مضمر، تنزاح فيه نحو رغباتها الذاتية، وهذا ما يجعل رؤية الروائي تقف على حقيقة النفس البشرية، وما يعتريها من تقلبات بين الورع والطيش، وتضع "ابن سينا" في طبيعته الإنسانية الحقيقية، ورؤيته على أنَّه إنسان، وبكل ما يحمله هذا المخلوق من حالات نفسية متموجة؛ كونه يخطئ ويصيب، يحب ويكره، يزهد ويشتهي ويطيش؛ أي النَّظر إلى الشخصية التاريخية المثقفة والمفكرة بنظرة شمولية، يراعى فيها الكَمال والنّقص، باعتبار أن البشر جميعهم يخطئون، فليس من الآدميين من هو معصوم عن الخطأ. وهذا يتجلَّى في النَّصِ بقول السارد: "ولأن الرجال مهما كانوا حكماء فإنهم لا يبرؤون من الطيش الطفولي."[23]

وهذا ما يعكس مزاحمة النفس بكل رغباتها وشهواتها لسلطان العقل، فالنفس البشرية كثيرة الترنّح بين اللذة الحسية واللذة الرّوحية، فمهما بلغ الإنسان مرتبة من الحكمة والعقل، إلا أنَّه يحمل جانبًا من الطّيشِ والعَبثِ والاستمتاع بأهواء النَّفسِ.

2-2-الأحداث التّاريخية، تمثيل للصراع السياسي والديني والرغبة في التعايش والحوار:

تتأسس الرواية في بعض الأحيان على الأحداث التاريخية، التي تعني" بالمعنى الأنطولوجي، ما حدث فعلا في الماضي."[24] كما تشكّل مادة الروائي التي تُعينه في تشكيل نصّه السردي، وإحداث ديناميكية لسيرورة الحكي التي تشدّ المتلقي، وترغمه على فعل القراءة والتّفاعل مع النص والاندماج فيه.

وباعتبار رواية "فردقان" من النصوص الروائية التي تُصنَفُ ضمن الروايات التاريخية، فهذا يؤكد حضور الأحداث التاريخية كركيزة أساسية فيها ، حيث عمد "يوسف زيدان" إلى تأثيث نصّه بناء على منظومة من الأحداث الحقيقية الماضية، التي عرفتها الحضارة الإسلامية في العصر العباسي، وشهدت اضطرابات سياسية وخلافات بين الملوك والسلاطين، من أجل السيطرة على البلاد، مع وجود صراع بين الطوائف والمذاهب الدينية.

كما انصرف الروائي إلى توصيف الأحداث المتأزمة، النَّاتِجَةِ عن الصِّراع الطائفي بين السُّنة والشيعة، حيث كان الملوك أطرافا فاعلة في هذا النِّزاع، فوجدوا في التعصّب الديني مسوغا لبسط النفوذ والسيطرة على نطاق واسع من الأماكن. وقد تمّ توضيح هذه الأحداث

التاريخية عن طريق إخبار "السيدة" وهي حاكمة "الري" لابن سينا بالخطر المحدّق بالبلاد، بقول السارد: "وأخبرته "السيدة" بأنّ محمود الغزنوي يراسل الخليفة العباسي في بغداد سرا، عارضا عليه أن يرفع راية "السنة" التي تدين بها دار الخلافة، في وجه البويهيين الشيعة الذين أذلوا الخلفاء العباسيين وتعالوا عليهم. وقد أكَّد له الغزنوي في تلك الرسائل، أنه سوف يقضي على دولتهم التي دام سلطانها في فارس والعراق، لأكثر من مائة عام. وهذا كلام يحبه الخليفة ويتمناه، ويجعل من "الغزنوي" الداعم الأول والساعد الأيمن للخليفة، وبالتالي يصير هو السلطان الوحيد للأنحاء الخوارزمية والفارسية والأفغانية والتركية، وأي مواضع أخرى يستطيع ابن سبك تكين بسط سلطانه عليها بقهر السيف."[25]

فهذه الأحداث التاريخية التي تمّ توظيفها في هذا المتن الروائي، تطرح مسألة الصراع الأزلي بين المذهبين الشيعيّ والسنيّ، التي حمي وطيسها منذ وقوع الفتنة الكبرى، حيثُ جَرّت العالم الإسلامي إلى متاهة من الصراعات المتجدّدة في كلّ عصرٍ وبكُلّ مكان، وكشفت عن التَّشدّد الديني الذي يعزّز محبة الذات والولاء لمذهبها، وتتعارض مع الآخر لمجرد الاختلاف عنها في توجّهها الديني، حيثُ يصل هذا التَّعَصّب إلى درجة العُنفِ والقَتل بحُجَةِ نصرة الدين. وهذا ما استنكره الروائي حِين يَعدُّ هذا النوع من التديّن، قصورا في فهم مقاصد الدين، وتشويها للصورة الحقيقية التي تطالب بها الديانة الإسلامية، من بعث لأواصر التَّعايش، ونبذ للتّفرقة بين الملل والنحل. وقد أوضح ذلك من خلال استحضاره للأحداث التاريخية التي كانت شخصية "محمود الغزنوي" سببا في وقوعها، "يريق الدماء سفحا بحجة نصرة الإسلام ومذهب السنة، عجيب. ألا ينصر الدين ويشيع المذهب، إلا بسفك الدماء؟ "[26]كما ورد هذا الرَّفض للتعصب في موضع آخر: "وما يقترفه هذا الرجل من سفك للدم ونشر للخراب بدعوى الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام، لا يقرّه عقل ولادين."[27]

ثم يضع "يوسف زيدان" هذا الواقع تحت أمر آخر، يرى فيه الاتجاه الأنسب الذي يخطو فيه العقل العربي مسارات تقوده نحو الخروج من هذه المتاهة، وذلك بإعادة النظر في طريق تفكيره، فصار لازما عليه الانصراف عن تزّمته وتعصّبه بإحلال روح التسامح بين مختلف المذاهب، قاصدا من ذلك، خلق حوار بين الفرق المتناحرة، وفرض منطق التعايش الذي يعتبره المخرج الذي يخلّص هذه الأمّة من الشتَات، فلا يستقيم الوضع إلا بضرورةِ تقبل الآخر، والانفتاح عليه وتقبله.

يَبرُزُ توجّه الروائي نحو خَلْقِ التَّعايش والحوار بن المذاهب الدينية، من خلال استحضاره للقصة الحقيقية المعروفة في التاريخ الإسلامي، التي تدور أحداثها حول ابن الأمير

البويهي الذي أصيب بمرض المالنخوليا، بعد فراقه عن حبيبته، وذلك لوجود خصام بين أسرتيهما، "وكانت الأسرتان تتزاوران دوما ويجتمع أفرادهما، حتى نشب قبل شهور خلاف بين العربي والبويهي، بسبب وجود جدال جرى بينهما عن الحروب التي وقعت بين صحابة النبي، وتطوَّر الأمر بينهما فانقطعت الصلات وحلت الوحشة مكانها. وما كان أحد يدري بأن ابن هذا، هائم بابنة ذاك."[28]

وبعد أن قام "ابن سينا" بمعالجته، توصَّل إلى فكّ الخلاف القائم بين الرجل العربي والبويهي، وإحلال الصلح بينهما، والسماح للعشيقين بالزواج، " دامت الجلسة ساعات، سمع فيها العربي بما جرى للفتى الولهان، فظهر عليه التأثر. شرد ذهنه لحظات بدا فيها متحيّرا، وبعد تردّدٍ حزم أمره بقوله.: يعلم الله أنني طالما أحببت هذا الفتى ونظرت إليه كأحد أحب أبنائي، والآن أحببته أكثر من ذي قبل، لأنه طاهر في عشقه. وقد بذل من معاناة الكتمان ما كاد يودي عقله، وهذا صار اليوم نادرا، ولن أجد زوجا لابنتي خيرا منه. بشرط واحد، أن يعدني أبوه بألا يقع في الصحابة مجددا، ولا يعيب أبدا أم المؤمنين "عائشة" أو طلحة أو الزبير، على الأقل في وجودي.

-أعاهدك يا أبا قاسم على ذلك، في وجودك أو في غيابك، لن أذكرهم أبدا بسوء. فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت"[29]

كما عَمد الروائي إلى إبراز الوضع المتشردم الذي عرفه العالم الإسلامي في تلك الفترة، عن طريق إدراجه لجملة من الأحداث التاريخية المتداخلة والمتشابكة، التي تبرز انحياز الروائي إلى الأحداث الواقعية بدلا من توظيفه للأحداث المُتخيّلة. كما تفصح عن امتداد هذا التشتت والصراع على نطاق واسع من العالم الإسلامي، فكل حدوده وأمكنته تعرف تناحرا وصداما، وهذا ما يعجل بالتفكّك والسقوط والتلاشي الحضاري. وقد تمَّ سرد هذه الأحداث عن طريق وصف شرود "ابن سينا" بخاطره، بوصفه شاهدا على هذا الواقع المأزوم، "فرأى لوهلة أن دولة الإسلام قد صارت شذرات ممزقة. فالخلافة في بغداد أمست منذ فترة طويلة اسما بلا رسم، وشكلا لا دلالة له، الخلفاء يتنعمون بالملذات في قصورهم، وينتظرون الفيء والهدايا من أمراء استقلوا بالبلاد شرقا وغربا، ففي الجانب الشرقي البويهيون وبنو الكاكويه، ومن قبلهم السامانيون وقابوس ومأمون بن مأمون، والآن محمود بن سُبُك تَكين ناكح الغلمان، وناهب الهند، قاتل وأخيه. وفي الجانب الغربي الحمدانيون في حلب، والخلفاء الفاطميون في مصر والقاهرة، وآل زياد في زبيد، وأمراء الطوائف في المغرب والأندلس.. الكيان الذي كان كليا،

يتفكك، لكن الناس تعيش في ظلاله دون أن تدري أنه يذوي ويزوي، وسوف يسقط قريبا ويضمحل"[30].

مِمّا يثبت فراغ العقل العربي الذي مازال يمارس التقاتل والمشاحنة والصراع لأجل تحقيق أهدافه، مَا حدا بالروائي "يوسف زيدان" إلى طرح سؤال إشكالي "يتعلق مرة أخرى بموقعنا كعرب ومسلمين وسط هذا العالم المتناقض الذي يسير بسرعة مذهلة نحو قدر غامض لسنا قادرين فقط على تتبعه، ولكن كذلك على فهمه وإدراكه."[31]

وهذه الإشكالية التي يطرحها الروائي، تُعدُّ في الأساس نوع من المسار التنويري الذي سلكه الروائي، بغية تنبيه المجتمعات العربية إلى خطورة الوضع الذي تَعيشه، وإحياء ضمائر المجتمعات السكونية المحنّطة التي ظلت متقوقعة على انكساراتها وانتكاساتها، علّها تخرج من هذا المأزق الذي لازمها لفترة طويلة.

2-3-الزمن التاريخي، استحضار للماضي، قراءة للحاضر واستشراف للمستقبل:

يتسم الزمن الروائي بالزئبقيَّةِ والتَّمَدُّدِ اللذين يتيحان له الحرية بالتواجد في فترات متباينة ومختلفة، تترنح بين الماضي والحاضر والمستقبل. ويكتسي الزمن التاريخي-على وجهِ التَّحدِيد-خصوصية ماضوية، بتعلّقه بفترات سابقة تحاكي وتختزل حياة شعوب وشخصيات، وما ينتج عنها من أحداث ووقائع. ولما يكون هذا الزمن التاريخي قرينا بالرواية وبرؤية الروائي، فإنَّه سينحو منحى آخر، ويخرج من بوتقة الماضي الذي يضيّق عليه حدوده، وينطلق نحو مجال أرحب، فيمثل اللحظة الآنية بكل تفاصيلها، ويستبصر الآتي بكل خوافيه.

وقد كان رهان "يوسف زيدان" في هذه الرواية على الزمن التاريخي، بانتقائه فترة استثنائية من الحضارة الإسلامية الممثلة في الفترة العباسية ،واستخلاصه بعضًا من الوقائع والشخصيات التي كانت لها صدى في تفعيل مجريات التاريخ، وإظهار هذه الفترة الزمنية بتفاعلاتها وتناقضاتها، لتؤسس للزمن الحاضر والمستقبل. فرجوع الرواية إلى هذه الحقبة الزمنية، ليس اجترارا لفترة انقضى زمنها وانتهى، " إنَّمَا تبحث في طياتها عن العبرة المتناظرة بين الماضي والحاضر، وعن التَّماثلات الرمزية فيما بينها، فضلا عن استيحاء التأملات والمصائر والتوترات والانهارات القيمية و التطلعات الكبرى، فتجعل منها أطرا ناظمة لأحداثها، ودلالاتها، فكل تلك المسارات الكبرى التي يقترح" التخيّل التاريخي" تنقل الكتابة السردية من موقع جرى تفنيد حدوده النوعيّة إلى تخوم رحبة للكتابة المفتوحة على الماضي والحاضر."[32]

فالماضي هو فترة مستمرة وموازية للتاريخ المعاصر بكل تعقيداته، والحاضر هو نتاج ترسّبات هذا الماضي ومحصّلة لما اصطنعه الإنسان السابق. وبهذه الصيغة، يكون التاريخ في هذه الرواية قد أعاد نفسه من جديد، ليطرح قضايا متكرّرة وملازمة للإنسان العربي، ويفضي بالحكم أيضًا إلى ثبات وضعه المتأزم، واستقراره على حالٍ واحد على مَرّ العصور. فصراع المثقف مع السلطة هو مشكلة ممتدّة عبر أزمنة متعدّدة، فواقع المثقف الأمس هو واقع المثقف اليوم، وهذا ما يعبر عن خواء العقل العربي الراغب في التسّلط والسيادة. ونظام الحكم في الماضي هو نفسه في الحاضر، وشتات الأمة العربية الإسلامية سَابِقًا، مازال متواصلا حتى اللحظة الآنية. أمَّا التعصّب الديني، فهو ظاهرة دينية وأيديولوجية متواجدة منذ عصور سابقة ومستقرّة في الأنظمة السياسية، ومازالت تفرض نفسها على العقلية العربية المتحجّرة، التي ترى في توجّهها الديني أحقية التواجد و الشمولية على جميع المعتقدات الأخرى، ودحضها لفكرة التعدّدية الدينية وتقبل الأديان والأطياف الأخرى، و عدم احترامها لحرية المعتقد.

وسيكون هذا الواقع بأحداثه ومتغيّراته، تاريخ الإنسان المعاصر، الذي سيرمي بتبعاته على الأزمنة المستقبلية، كون هذا الحاضر هو البناء الذي يقام عليه المستقبل، وإذا كان واقع هذا الحاضر مرتبكا مهزوزا، فلا ضير بالحكم عليه بالشتات والضعف، وبهذا المعنى، يكون الحاضر نتاج الماضي، وعبر معطيات الحاضر تتبلور الرؤية الاستشرافية التي تتأسس عليها نظرة الروائي تجاه طبيعة المستقبل، وما سيكون عليه وضع الإنسان في حياته الآتية. وهذا ما رمز إليه الروائي بقول السارد: "مادامت المعارك تدور بين الملوك والأمراء ومنذ مائة سنة، وسوف يستمر دورانها الطاحن لمائة سنة تالية."[33]

وهذا ما يمثل منظور الروائي وفلسفته في استحضار الماضي، وتفسير وقراءة حاضر و استشراف مستقبل الإنسان العربي، قاصدا من ذلك، التنبيه إلى خطورة الوضع الذي يعيش فيه، وكذا وضع مشروع فكري يهدفُ إلى تنويرِ العقل العربي وتحريره من معتقداته الخاطئة، كون هذا العقل مازال متكلِّسًا ويسير على نهجٍ واحد، بتفكير رجعي رتيب، يأبى الخروج عن نمطيته، ليجعل الوضع العربي جاثما على حالِهِ حبيس نَمَطٍ تفكري متجَمّد.

خاتمة:

خِتامًا لدراستنا التي اشتغلنا فيها على: رواية "فردقان" اعتقال الشيخ الرئيس ليوسف زيدان، التي بحثنا فيها عن العلاقة والتَّرابط بين الرواية والتاريخ، وعن المعطيات التاريخية التي يتم توظيفها، وكذا الكشف عن تعدّد مقاصد ورؤى الروائي المتوارية خلف الحقيقة التاريخية

التي تكتنف هذا النص الروائي، يمكن القول بوجودِ علاقة توافقيّة تفاعلية بين التاريخ والرواية، على مستوى البنية السردية، بالأخص على مستوى الشخصية، حيث تمَّ توظيف شخصيات مستقاة من التاريخ الإسلامي، وتدعيمها بشخصيات أخرى مُستحدَثة، تمَّ نسجها من مخيال الروائي، ما جعل الرواية تنزاح قليلا عن الحقيقة التاريخية نحو التخييل الإبداعي، وهذا ما يعكس العلاقة المتبادلة بين الرواية والتاريخ، فالتاريخ يمنح الرواية عناصره الواقعية، والرواية تضفي عليه بعدا أدبيا وفنيا. أما الأحداث التي تمّ توظيفها في هذا المتن الروائي، فهي منتقاة من العصر العباسي، التي حافظ فيها الروائي على حقيقة وقائعها ومجرياتها، فكانت أقرب للتاريخ أكثر من الخيال. كما اختصّ الزمن التاريخي في هذه الرواية بالفترة العباسية مع مراعاته لخصوصيّة هذه المرحلة. وهذا ما يعني استحواذ التاريخ بطابعه الواقعي والحقيقي على هذا المتن الروائي، وتقيّد الروائي بالنقل الحرفي للتاريخ على حساب التوظيف التخييلي، الذي وظف بطريقة مقتضبة حيّية.

وهذا التوظيف للمعطى التاريخي بتفاصيله الحقيقية، لا يعني أن الروائي قد كتب نصا تاريخيا، واستحال إلى مؤرخ، إنما كتب نصا روائيا يشتغل على المعنى المضمر خلف هذا التوظيف للتاريخ، يتعيّن على القارئ البحث عنها للوصول للمعنى الحقيقي. فتواجد التاريخ بمعطياته وعناصره، قد حقَّقَ أبعادًا دلاليةً ورمزيةً، تُفصح عن تعدّد رؤى الروائي في تفاعله معه، والنفاذ إلى جوهره، فكانت الشخصية التاريخية، مثل شخصية "ابن سينا" معادلا موضوعيا، لأزمة المثقف عبر مختلف الأزمنة، كما عبّرت الأحداث التاريخية التي وقعت في الفترة العباسية عن الصراع السياسي، والتعصّب الديني، الذي عرفته تلك الفترة، وإسقاطها على ما يحصل في الحاضر من نزاعات وانشقاقات بين الطبقة السياسية، والفرق الدينية. كما أنبأ الزمن التاريخي عن تواصل أزمات الإنسان العربي، وتواترها بدءا من الماضي، وصولا إلى الحاضر؛ أي أن الروائي قدّم عبر هذا التاريخ قراءة ونقدا لحاضر ومستقبل الإنسان المعاصر، الذي يكابد عناء الإقصاء والتَّهميش، و يبحث عن هويّته التائهة في مدارات الواقع. وبهذا تكون الحقيقة التَّاريخية، غنيمة الروائي التي يستثمرها في التَّعبير عن اتجاهه الفكري، وعن نظرته المتعدّدة في قراءته للقضايا الراهنة، فيكون استحضار التاريخ السابق، هو كتابة للتاريخ المعاصر. وبهذا تصبح الرواية المحرّك الذي يبعث الحياة في هذا التاريخ، ويخرجه من صَنَمِيّتِهِ، ويُعطِيه دلالةً ومعنىً، ويصبح قابلا للقراءة والاستنباط.

قائمة الهوامش:

[1] محمد القاضي: الرواية والتاريخ- دراسات في التخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1،2008، ص18.
[2] عبد الله إبراهيم وآخرون: الرواية والتاريخ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، قطر، دط، 2006، ص5.
[3] هايدن وايت: محتوى الشكل، الخطاب السردي والتمثيل التاريخي، تر: نايف الياسين، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، البحرين، ط1، 2017، ص408.
[4] فليب هامون: سميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، المغرب، ط1، 1990، ص24.
[5] يوسف زيدان: فردقان، اعتقال الشيخ الرئيس، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 2018، ص 52.
[6] المصدر نفسه، ص19.
[7] إدوارد سعيد: خيانة المثقفين، النصوص الأخيرة، تر: أسعد الحسين، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، دط، 2011، ص36.
[8] ينظر: نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط1، 2014، ص06.
[9] إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، تر: محمد عنانى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص36.
[10] يوسف زيدان: فردقان، اعتقال الشيخ الرئيس، ص20.
[11] المصدر نفسه، ص34.
[12] المصدر نفسه، ص102.
[13] جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين، تر: جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1973، ص34.
[14] إدوارد سعيد: خيانة المثقفين، ص37.
[15] فيصل الدراج: الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص121.
[16] جاك لوغوف: التاريخ الجديد، تر: محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص473.
[17] يوسف زيدان، فردقان ، اعتقال الشيخ الرئيس، ص132.
[18] المصدر نفسه، ص44.
[19] المصدر نفسه، ص98.
[20] المصدر نفسه، ص100.
[21] المصدر نفسه، ص09.
[22] ميلان كونديرا: فن الرواية، تر: خالد بلقاسم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2017، ص ص 33-34.
[23] يوسف زيدان: فردقان، اعتقال الشيخ الرئيس، ص44.

[24] بول ريكور: الزمان والسرد الحبكة والسرد التاريخي، ج1، تر: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص155.

[25] يوسف زيدان: فردقان، اعتقال الشيخ الرئيس، ص47.

[26] المصدر نفسه، ص34.

[27] المصدر نفسه، ص 45.

[28] المصدر نفسه، ص38.

[29] المصدر نفسه، ص ن.

[30] المصدر نفسه، ص29.

[31] عبد الله إبراهيم وآخرون: الرواية والتاريخ، ص32.

[32] عبد الله إبراهيم: التخيل التاريخي، السرد، والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1،2011، ص05.

[33] يوسف زيدان: فردقان، اعتقال الشيخ الرئيس، ص34.

قائمة المصادر والمراجع:

1. محمد القاضي، الرواية والتاريخ- دراسات في التخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1، 2008.
2. عبد الله إبراهيم وآخرون، الرواية والتاريخ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، قطر، دط، 2006.
3. هايدن وايت، محتوى الشكل، الخطاب السردي والتمثيل التاريخي، تر: نايف الياسين، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، البحرين، ط1، 2017.
4. فليب هامون، سميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، المغرب، ط1، 2009
5. يوسف زيدان، فردقان، اعتقال الشيخ الرئيس، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 2018.
6. إدوارد سعيد، خيانة المثقفين، النصوص الأخيرة، تر: أسعد الحسين، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، دط، 2011.
7. نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط1، 2014

8. إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، تر: محمد عنانى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006.
9. جان بول سارتر، دفاع عن المثقفين، تر: جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1973.
10. فيصل الدراج، الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
11. جاك لوغوف، التاريخ الجديد، تر: محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2007.
12. ميلان كونديرا، فن الرواية، تر: خالد بلقاسم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2017.
13. بول ريكور، الزمان والسرد الحبكة والسرد التاريخي ، تر: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان،ط1، 2006.
14. عبد الله إبراهيم، التخيّل التاريخي، السرد، والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 2011.